البيت الهادئ

كتبت في القطار النازح عن الاسكندرية

للأستاذ سعد محمود دوارة

ها هو ذا القطار تتسارع دقاته كأنها خفقات قلب كبير ... وها هي ذي أعمدة التلغراف تتلاحق كأن بينها سباقاً لا نهاية له... وها هو النهر الحبيب يختفي وراء الأفق البعيد

القطار مزدحم بالكتل البشرية وكتل المتاع . الناس وجوههم مكفهرة مغبرة ، نظراتهم حزينة قلقة . لقد هجروا ديارهم فارين من الموت الذي كان يحوم فوق رؤوسهم ، لا حديث لهم إلا ما أصابهم من نقص في الأموال والأرزاق والأرواح .

أمامي سيدة تبكي بكاء صامتاً ... تركت زوجها الذي لم يستطع اللحاق بالقطار ؛ ولقد حاولت أن تعود إليه ، ولكن أنى لها أن تتحرك بين هذه الجموع المتشددة . إنها لا تعرف أين تذهب ولا كيف تعيش ، وهي لا تملك سوى الثوب الذي لا يكاد يستر جسدها

أما هذه الفتاة الهيفاء التي تجلس بجانبي شاحبة كأنها تمثال من الشمع ، فهي خطيبتي وفتاة أحلامي « عايدة »

لقد كانت في يوم من الأيام زهرة نضرة تستقبل أشعة الشمس الذهبية وتميل مع النسيم الرخاء ... ولكنها الآن بعد أن حطمت قلبها يد القدر القاسية ، تبدو واجمة ... وقد نفرت مني كأن قلبها لم يخفق في يوم من الأيام بحبي ... وإذا التقت عيناي بعينيها نظرت إلى نظرة عتاب شديدة ثم أخفت وجهها كي لا أرى دموعها المنهمرة

* * *

في تلك الليلة المشؤومة ، كنت أنا وعايدة في إحدى دور السينما حين سمعنا زمارات الإنذار ترسل نعيبها الحزين ؛ وتسابق

قصص مسرحية للأطفال

القصص من أنفع الوسائل لتهذيب النفوس ، وتلقين الناشئين اللغة الصحيحة ، ورياضتهم على البيان ؛ ومن الممكن أن تكون عوناً للمدرسين على تدريس الحقائق التاريخية في غير عسر ، وطريقاً لإتقان فني الإلقاء والتمثيل ، وداعية لتآلف التلاميذ وتقوية أواصر المودة بينهم لما تشتمل عليه من حوار مسرحي يصحبه شيء من الحرية التي تخرج بالتلاميذ عن نطاق التعليم الجاف .

ولقد تلوت مؤلَّف الأستاذ (محمد يوسف المحجوب) فوجدته مبعثاً لسرور القارئ ، شاهداً بفضل المؤلف ، ولا شك أنه فتح جديد في تدريس القصص المدرسية ؛ فهو مصوغ في أسلوب شعري منسجم النغمات ، سهل العبارة ، متين النسج ، بريء من الغرابة والتعقيد ، سليم من المحاورات العنيفة التي تسوق الأطفال سوقاً إلى حب اللجاج والمهاترة .

والقصص مشتملة على أغراض نبيلة ، فمنها ما يدعو إلى مكارم الأخلاق كقصة (على البحيرة) ، وما يربي العاطفة الوطنية ويغذي المعارف التاريخية كقصة (قناطر محمد علي) وقصة (فتح مصر) . هذا إلى ما يزيد شوق القارئ ويبعث السرور في نفوس الناشئين من جمال الطبع ، والعناية بضبط الحروف ، وتجميل القصص بالصور المتقنة التي تربي الخيال والذوق السليم .

ولا غرابة في ذلك فالمؤلف معروف برقة العاطفة ، ولطف الحس ، وهو — كما قال الأستاذ الكبير محمد علي مصطفى في مقدمة الكتاب — (يمتاز بأنه معلم فيه مهارة وحذق ، وبأنه خَبَر الأطفال وعرف مهامهم ، وبأنه درس هذه القصص لتلاميذه فأحبوها وشغفوا بها ، واستزادوه منها) .

(المنصورة) محمود البشبيشي

المتفرجون إلى الخروج يلتجئون إلى أقرب مخبأ ، وأخذ كل يتحسس طريقه فى الظلام ...

... وأخيراً وجدنا مكاناً ضيقاً فى أحد المخابئ ... كان الجو خانقاً ، والكآبة غاشية على كل وجه ، وكان السواد الأعظم من الناس بملابس النوم ... وابتدأت المدافع تدوى متعاقبة ... وتعالت أصوات الدعاء من كل جانب ... ومن حين إلى آخر كنا نسمع صفير القنابل وهى تشق طريقها فى الهواء متجهة إلى الأرض ، فتحتبس الأنفاس ويخيم على المكان هدوء كهدوء القبور — ثم نحس بالأرض تهتز تحت أقدامنا ، ونسمع صوت الانفجار مصحوباً بصوت تناثر الزجاج ...

وتبرعت « عايدة » بزجاجة عطرها تمررها بين الناس ... كانت تبدى شجاعة نادرة ، وكانت تواسى النساء قائلة : إن القنابل لا تقذف إلا على الأهداف الحربية ، وإننا جميعاً فى سلام !

وبعد ساعات — خيل إلينا أنها سنوات — سمعنا الزمارات تعلن انتهاء الغارة ... فاندفع الناس خارج المخبأ لاستنشاق الهواء الطلق ...

كانت الشوارع مضاءة بأشعة القمر الفضية ، وكانت قطع الزجاج المتناثر تتلألأ بريق غريب ... وخرج الناس من كل جانب فامتلأت بهم الطرقات ... كل يريد أن يطمئن على ذويه وأقاربه !

وشاهدنا ونحن نشق طريقنا بين الأكداس بيوتاً تهدمت ، وبيوتاً لا تزال تتهدم — كما شهدنا عربات صغيرة محملة بالمتاع وبالناس متجهة نحو محطة السكة الحديدية — كأن أصحابها لا يطيقون الإقامة فى هذه المدينة لحظة أخرى بعد أن رأوا الموت بينهم — ومعهم !

وأخيراً — وبعد مجهود عنيف ، بلغنا الشارع الذى تقيم فيه « عايدة » مع أمها وأختها الطفلة — كان الزحام شديداً بدرجة غير عادية ، وكان عمال الإنقاذ والإسعاف يحاولون صد تيار الجموع المحتشدة — !

ولم أشعر إلا و « عايدة » قد تركتنى واندفعت بين الزحام حتى غابت عن ناظرى ، كما تغيب قطعة الحرير البيضاء بين عتمة الأمواج المتلاطمة —

أخذت أناديها . . . ولكن صوتى كان يختنق بين همهمة الجمهور ، وبين الصراخ والنحيب ...

وأشرفت على مكان أستطيع منه أن أرى بيت « عايدة » ... لم أكد أصدق عينى . . . ذلك البيت الذى كان يشق الفضاء قد صار أثراً بعد عين ، وقد تصاعدت فى مكانه سحب من الغبار الأبيض الكثيف ... !

ورأيت « عايدة » تحاول أن تتملص من أيدى رجال الإنقاذ الذين منعوها ... من الاقتراب ... من الأنقاض ...

حاولت أن أصل إليها وأفهمها أن محاولتها هى الجنون بعينه ، ولكن دون جدوى ، فقد كان تيار الجمهور الجارف يدفعنى إلى الوراء

وغابت عايدة عن ناظرى لحظات ، وعندما رأيتها ثانية كانت فوق الأنقاض ، ولا أدرى كيف وصلت إلى هناك ... كانت ترفع قطع الحجارة المحطمة وبقايا الأثاث المتهالك . كانت تفعل ذلك بقوة عجيبة لم أكن أعهدها فى ساعدها البض ويديها النحيفتين الناعمتين ... وقد انسدل شعرها الفاحم فوق وجهها حتى أخفاه

وحاولت أن أثنيها عن محاولتها الجنونية ، فقد كانت هناك بضعة جدران تريد أن تنقض . ولكن أنى لها أن تسمع صوتى الضعيف ..؟

وفى هذه اللحظة سمعنا زمارة الإنذار ترسل نعيبها وكأنه نعيب غراب سوء ، وساد الهرج واندفع الناس كأنهم قطيع من البقر الوحشى نحو المخابئ

وبذلت جهود الجبارة حتى وصلت إلى عايدة وكانت مكبة على عملها كأنها لم تسمع شيئاً . . . أفهمتها أن بقاءها مستحيل ، ولكنها لم تقتنع ، بل أخذت ترد فى صوت حزين : « دعنى أنقذهم ... دعنى أنقذهم »

واضطررت إزاء إصرارها أن أقسو عليها بعض القسوة ،

فحملتها بين ساعدى كطفلة صغيرة ، ولكنها قبل أن تغادر المكان كانت قد استخلصت من بين الأنقاض دمية صغيرة . كانت دمية أختها !

وقضينا ليلة ممتعة ... وعند ما خرجنا من الخباء كان الشفق الوردي ظاهراً فى الأفق معلناً قدوم يوم جديد

وحملت عايدة مغمى عليها إلى منزل

وهناك استطعت بمساعدة خادمتى العجوز — وهى الشخص الوحيد الذى يعيش معى — أن أسعف عايدة . وبعد مدة ليست قصيرة أفاقت

كان جفناها ذابلين وقد أحيطت عيناها بهالتين من الزرقة الداكنة . وكانت أصابعها لا زالت ممسكة بدمية أختها الطفلة

كانت تتكلم بهدوء غريب وهى تغالب دموعها التى حفرت لها مجرى فوق وجنتيها الشاحبتين ... ولا زالت كلماتها ترن فى أذنى وتتكرر فى سرعة متزايدة

قالت إنه كان فى إمكانها أن تنتشل أختها وأمها من بين الأنقاض لولا حملى إياها عنوة إلى الخباء

حاولت جهدى أن أفهمها أن هذا كان مستحيلاً ، وأننى خفت أن يسقط عليها جدار أو تنهار من تحتها الأنقاض فأفقد بموتها آمالى ولا يبقى لى سوى الأحزان ، ولكنها كانت فى حالة غير عادية ... وكانت فكرة إمكان إنقاذ أهلها تتملكها وتلح عليها . وانتابتها بعد ذلك حالة ذهول هى أشبه بالإغماء ، فلم تعارض حين شققنا طريقنا نحو محطة السكة الحديدية

* * *

لا زال القطار تتسارع دقاته ، ومن حين إلى آخر يرسل أنيناً حاداً كأنه يشارك الناس أحزانهم وأنينهم

لقد صرنا فى قلب الريف ! الخضرة تلفنا من كل جانب . ما أروع اللون الأخضر ؟ ! ... إنه يهدئ الأعصاب ويحيى فى النفس حب الحياة

الجو رائق ، وكأن ركاب القطار قد أنهكهم التعب فخيم السكون على المكان . أما عايدة فقد مال رأسها الرائع فوق كتفى ، وهبّت نسمات الأصيل اللطيفة تطيح بخصلات من شعرها الثائر إلى وجهى فينقل إلى شذى عاطراً

لا زالت آيات الحزن مرتسمة على وجهك أيتها الحبيبة ... وإنى لأشاركك هذا الحزن ؛ فقد كانت أمك تعوضنى بعطفها وحنانها مما حُرمته منذ زمن طويل

أما أختك الصغيرة ، فقد كانت عصفورة مرحة ، ولا زالت صورتها مطبوعة فوق مخيلتى وهى تندفع نحوى وتدس يديها الصغيرتين فى جيوبى باحثة عن الحلوى ... ثم تأبى أن تفارقنى حتى تنام فأحملها برفق إلى مخدعها ...

نحن ذاهبون إلى أختى التى تسكن الريف ...

إن لها ابنة صغيرة تشبه أختك ... وستجدين هناك عطفاً وحناناً وستغفرين لى ذنبى !

سنبقى هناك حتى تنقشع تلك الغمامة التى تحجب سماء بلدتنا الحبيبة ... ثم نعود إليها

وإنى لأتخيل يوم عودتنا ... سيكون القطار الذى نركبه مزدحماً ... ولكن السعادة ستعمل على وجوه المسافرين محل التعاسة التى نراها الآن مرتسمة على وجوههم ... وإن صورة البيت الذى سنقيم فيه فى الأسكندرية لمطبوعة فوق مخيلتى حتى لأكاد أراها ... هو بيت هادئ تحيط به من كل جانب حديقة صغيرة خضراء ...

أما هؤلاء الذين أحزننا فقدهم وأبكانا ، فإنى موقن أن لهم الآن بيتاً هادئاً .

سعد دوارة

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية :
السنة الأولى فى مجلد واحد ٥٠ قرشا ،
و٧٠ قرشا عن كل سنة من السنوات : الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة فى مجلدين . وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش فى السودان وعشرون قرشا فى الخارج عن كل مجلد .

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)